وقال أبو شامة المقدسي: إنه لا منافاة بين الآيات الثلاث، فليلة القدر هي الليلة المباركة، وهي في شهر رمضان[1]. ثم قال: «إن أول ما نزل على النبي ﷺ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ وذلك بحراء عند ابتداء نبوته، ويجوز أن يكون قوله ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ۝١٨٥﴾ [البقرة] إشارة إلى كل ذلك، وهو كَوْنُهُ أُنزل جملة إلى السماء الدنيا، وأول نزوله إلى الأرض، وعَرْضُهُ وإحكامُهُ، في شهر رمضان، فَقَوِيَتْ ملابسةُ شهر رمضان للقرآن إنزالاً جملةً وتفصيلاً وعرضاً وإحكاماً، فلم يكن شيء من الأزمان تحقق له من الظرفية للقرآن ما تحقق لشهر رمضان، فلمجموع هذه المعاني قيل ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾»[2].

ولا شك في أن نزول القرآن جملة إلى السماء الدنيا هو من أمر الغيب الذي تتوقف معرفته على ورود نص في القرآن أو الحديث يبينه، ولكن قول الصحابي في الأمور التي ليست موضع اجتهاد، إذا ثبت، حُكْمُهُ حُكْمُ الحديث المرفوع، وهو ما ينطبق على تفسير ابن عباس هنا، فقد نص السيوطي على صحة أسانيد الأحاديث التي نقلت ذلك التفسير عن ابن عباس[3]. فمن المرجح أن يكون ابن عباس قد فهم التفسير من النبي ﷺ.

على أن مما يجب الالتفات إليه في موضوع نزول القرآن هو أن هذا الاختلاف في تفسير هذه الآيات لا يؤثر في شيء على نص القرآن الكريم، فسواء ثبت ما نقل عن ابن عباس أو ما روي عن عامر الشعبي فنص القرآن واحد في كلا القولين، وهما يؤولان إلى نتيجة واحدة وهي أن النبي ﷺ تلقى القرآن مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة، لكن العلماء قالوا إن في إنزاله جملة إلى السماء الدنيا «تفخيم لأمره وأمرِ من أُنزل عليه، وذلك بإعلام سكان السماوات السبع أن هذا

---

(١) المرشد الوجيز ص٩.

(٢) المصدر نفسه ص٢٤.

(٣) الاتقان ١/ ١١٧.

آخر الكتب، المنزل على خاتم الرسل، لأشرف الأمم، قد قربناه إليهم لننزله عليهم، ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجماً بحسب الوقائع لَهُبِطَ به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله تعالى باين بينه وبينها، فجمع له الأمرين: إنزاله جملة ثم إنزاله مفرقاً»[1].

ثانياً ـ حكمة نزول القرآن منجماً:

استغرق نزول القرآن الكريم ثلاثاً وعشرين سنة، فهو لا يشكل ظاهرة مؤقتة أو خاطفة، ولقد نزلت الآيات منجمة، قد تنزل السورة الكاملة أو الآيات، أو الآية الواحدة، وبين كل وحي وما يليه مدة انقطاع قد تطول وقد تقصر، بحسب التقدير الإلهي، لا برغبة النبي ﷺ فإن رسول الله ﷺ لم يكن يملك من أمر الوحي غير التلقي الواعي، ثم الحفظ والتبليغ. فالله سبحانه هو الذي اختار هذا الطريق لتنزيل القرآن. وقد تمنى الكفار نزول القرآن جملة واحدة، ولكن الله تعالى بَيَّن أن وراء نزوله مفرقاً حكمة يتعلق بها استمرار الدعوة ونجاحها، فقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣ ﴾ [الفرقان].

ويقدم المفسرون لقوله تعالى: ﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ ١٢٠ ﴾ [هود] تفسيرين، هما:[2]

١- لنقوّي به قلبك، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب، وأشد عناية بالمرسل إليه.

٢- لتحفظه، فيكون فؤادك ثابتاً به غير مضطرب، وكان النبي ﷺ أُمياً لا يكتب ولا يقرأ، ففُرِّقَ عليه القرآن ليتيسر عليه حفظه.

---

(١) أبو شامة: المرشد الوجيز ص٢٤، وينظر: السيوطي: الاتقان ١/ ١١٩.

(٢) ينظر: الطبري: جامع البيان ١٩/ ١٠، وأبو شامة: المرشد الوجيز ص٢٨، والسيوطي: الاتقان ١/ ١٢١.

ولا شك أن تفريق النص الذي يراد حفظه ييسر الأمر على مَنْ يريد أن يحفظه، لكن ذلك قد لا ينطبق على الواقع، فقد صرح القرآن أن حفظ الوحي مكفول للنبي ﷺ كما مر ذلك، والله تعالى يقول: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ [الأعلى] و (لا) هنا نافية، والآية تعني أنك تحفظه ولن تنساه، ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ ۝١٨٨﴾ [الأعراف].

والدارس اليوم والمتأمل لتاريخ الدعوة تتجلىٰ أمامه حكمة نزول القرآن مفرقاً، بالنسبة إلى النبي ﷺ وبالنسبة إلى المؤمنين، فالدعوة الإسلامية جاءت لتصلح أوضاع البشرية الفاسدة في العقيدة والسلوك والتشريع، ولا يناسب تحقيق ذلك إلا الدعوة المتأنية، قال الله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٠٥ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝١٠٦﴾ [الإسراء] أي لتقرأه على الناس على تُؤَدَةٍ، فترتله وتبينه ولا تعجل في تلاوته[1].

وتلك في الواقع هي الطريقة التربوية الوحيدة الممكنة في حقبة تتسم بميلاد دين وبزوغ حضارة، فكان الوحي خلال ثلاثة وعشرين عاماً يهدي سير النبي ﷺ وأصحابه خطوة خطوة نحو هذا الهدف، وهو يحوطهم كل لحظة بالعناية الإلهية المناسبة، فهو يعزز جهودهم، ويقوي إرادتهم، حتى تكلل ذلك الكفاح بالنصر المبين، فالحركة التاريخية والاجتماعية والروحية التي نهض بأعبائها الإسلام لا سر لها إلا في هذا التنجيم[2].

جاء هذا القرآن ليربي أمة، ويقيم لها نظاماً، وجاء ليكون منهج تربية ومنهاج حياة، لا ليكون كتاب ثقافة يُقْرَأُ لمجرد الاستمتاع العقلي ولا لمجرد المعرفة، ومن ثم جاء هذا القرآن وفق الحاجات الحية للجماعة المسلمة، وهي في طريق نشأتها ونموها، ووفق استعدادها الذي كان ينمو يوماً بعد يوم في ظل ذلك المنهج التربوي الإلهي الدقيق.

---

(١) ينظر: الطبري: جامع البيان ١٥/ ١٧٩.

(٢) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ص٢٢١ - ٢٢٢.

وقد أدرك الصحابة تلك الحكمة التربوية من نزول القرآن الكريم مفرقاً، وهم الذين عاشوا تجربة تلقي القرآن على ذلك النحو، فلمسوا ثمار ذلك المنهج عملياً في حياتهم، قالت السيدة عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، كما جاء في صحيح البخاري: «... إنما نَزَلَ أولَ ما نزل منه (أي من القرآن) سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده...»[1].

قال ابن حجر في شرحه للحديث: «أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام...»[2].

لم يكن نزول القرآن الكريم مفرقاً مصادفة إذن، ولم تكن تلاوة النبي ﷺ للقرآن على الناس على مُكْثٍ وأناة دون حكمة، فقد ظل القرآن ينزل في مكة مدة ثلاث عشرة سنة وهو يعالج أسس العقيدة وأصول الدين، حتى إذا استوفت هذه القضية ما تستحقه من البيان واستقرت في قلوب الجماعة المؤمنة استقراراً مكيناً ثابتاً، نزلت الآيات تفصِّلُ ما يتعلق بنظام الإسلام في الحياة، فكانت النفوس المؤمنة تتلقى التشريعات بالرضا والقبول، فأُبْطِلَتِ الخمر وأُبْطِلَ الربا وأُبْطِلَ الميسر، وأُبْطِلَتِ العادات الجاهلية كلها، أُبْطِلَتْ بآياتٍ من القرآن، أو كلمات من الرسول ﷺ بفضل ذلك المنهج التربوي الرباني العظيم.

---

(١) ابن حجر: فتح الباري ٩/ ٣٩.

(٢) فتح الباري ٩/ ٤٠.

المبحث السابع
أَسْبَابُ ٱلنُّزُولِ

أولاً ـ معنى أسباب النزول:

لم يرتبط نزول جبريل عليه السلام بالقرآن على النبي ﷺ بأمر معين، كما أن رسول الله ﷺ لم يكن يملك اختيار الوقت الذي ينزل فيه القرآن عليه، فذلك أمر مرتبط بمشيئة الله تعالى، وما على الرسول إلا البلاغ المبين، فكان القرآن يتنزل عليه في الليل أو النهار، في السفر أو في الحضر، قائماً أو قاعداً، ماشياً أو راكباً، من غير أن يكون له في ذلك رأي أو اختيار.

وكان نزول القرآن ـ مع ذلك ـ يواكب سير الدعوة، ويُرَبِّي المؤمنين ويسدد خطواتهم، ومن ثَمَّ فإن نزول عدد من الآيات والسور ارتبط بأحداث معينة، فرسول الله ﷺ كان يُسْأَلُ من أصحابه أو من غيرهم. فربما أجاب من فوره، وربما انتظر نزول القرآن مُبَيِّناً الجواب، أو موضحاً الحكم، فإذا تأملت هذه الآيات الكريمة:

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ . . . ﴿٢١٥﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الأعراف].

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء].

إذا تأملت هذه الآيات أحسست أن نزولها ارتبط بسؤال، ومن الآيات ما ارتبط نزوله بحادثة وقعت أو مشكلة ظهرت في المجتمع الإسلامي وقت التنزيل.

وقد عبَّرَ السلف من الصحابة والتابعين، ومَن جاء بعدهم من العلماء والدارسين، عن ذلك السؤال وتلك الواقعة أو المشكلة التي تنزل عقبها الآية أو الآيات بعبارة (سبب النزول) فيقولون: نزلت هذه الآية بسبب كذا، وهذه